

الطالب مولاي مخطار
تحت إشراف: د. خشير عيسى
المركز الجامعي بعين تموشنت

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018-08-30	2018-09-26	2019-03-22

الملخص

شكلت نصوص محي الدين ابن عربي للباحثين والنقاد خاصة المحدثين حقلا خصبا لدراسة التصوف بكل مستوياته وأبعاده المعرفية ، وما تعالق في هذا المنهج من فنون وعلوم شتى أقحمت فيه اقحاما فأحدثت بذلك خرقا وشرخا في تصور البنية الكلية لهذا الفن ، وقد كثر الجدل عند ابن عربي بالخصوص وما خلفه من تراث ضخيم امتزج معظمه بالفلسفة وما أشبه ذلك من عقائد وأفكار دخيلة على الفكر الإسلامي ، فقد تميزت نصوصه بالتوتر العالي وصعوبة الولوج إلى ثناياه .

وتعد عتبة العنوان بالنسبة للنصوص مرجعا مهماً وفعالا يحمل في طياته علامات ورموز يُسهل على القارئ استخلاص البنية الدلالية للنص وتحديد تيمات الخطاب لما يحتويه من قابلية للتحليل والفهم والتفسير ، والغرض من هذه الدراسة محاولة تسليط الضوء على الكتب التي ألفها ابن عربي من خلال العناوين التي تعد جزءا رئيسا من النسيج العام في فكر الشيخ الأكبر .

الكلمات المفتاحية : ابن عربي ؛ العتبة ؛ الهامش ؛ العنوان ؛ البنية ؛ النص .

Abstract

formed the provisions of the son of Arabic researchers and critics private modern fields fertile to study the mysticism all levels dimensions of cognitive and correlation in this approach of Arts and various science that breach the perception of the whole structure of this art, and many controversy at genial religion the son of Arabic in particular, and his successor of Hhuge heritage that is mixed with philosophy and more like that of the doctrines and ideas extraneous on Islamic thought.

was characterized by its provisions tension of higher the difficulty of access to his laudation which is the threshold address reference no matter how effective carries inside signs and symbols makes it easy to the reader to draw the structure read through the fabric the public text and themes speech to the addition of susceptibility analysis and understanding and interpretation, the purpose of this study is to try to highlight the books which was established by the son of Arabic through the address which took them its owner platform the task of its legitimacy full in erosion and detection content

Keywords : the son of Arabic; threshold ; theosophy ; title ; structure.

تمهيد

يرتبط فكر ابن عربي بالمشاهدة والتجربة ، فهو صاحب رؤية عينية اخترقت صور المعقول والمدرك إلى فضاء المعرفة اللامتناهية ، فقد نقل هذا الحدث الآني الصوفي المتلقى من واردات نورانية خلقت بالضرورة التي تعكسها حال السالك المتشوف إلى الحقيقة من لغة وجدانية منحصرة في مخيال المتصوفة متوارية خلف كلمات سلوكا وتأملا وعاجزة عن الخروج إلى لغة وجودية فعالة حقق بها « فتحا لغويا حين حوّل اللفظ المفرد من دلالة على الذات إلى دلالة على معنى يقوم في الذات »¹ فقد ورث اللغة الصوفية بشقيها ، لغة المعاملة المتجسدة في شخصه منذ أن لزم طريق القوم ولغة المكاشفة التي كانت له فيها الخصوصية والقدرة على الاستيعاب واحتواء كل المورث الصوفي والباسه حلّة جديدة .

والقرآن الكريم عند ابن عربي هو الجامع الصغير أو كلمات الله المرقومة الموازية لكلماته المسطرة ، والوقوف بين طرفي النظر يعد تأويلا ومحاولة منه لمس نقطة التوافق بين هذا المدرك والقابل للإدراك عن طريق الفهم والتأويل ، وهو إذ يستمد معرفته من الكشف والشهود يجعل لكل حالة ونسبة اسما ولكل كتاب مرجعا وأصلا فيؤسس له شرعيته بمفهومها الصوفي ، ويختلف كل مرة على حسب الوارد فمرة أمرا من النبي صلى الله عليه وسلم ومرة الهاما يغلب عليه الحال فينقل « النص من مستوى الغيب الخيالي إلى مستوى الحضور المعرفي »² وهو بذلك لا ينسج مفرداته والمصطلحات وخاصة عناوين رسائله بل يتلقفها قهرا وإلهاما ، أو يتكوّن بعضها عنده مماثلة وفهما للإشارات والعبر التي ترد على القلب غلبة .

وتأتي أهمية العناوين في النصوص الأدبية لتحديد المزيد من الدلالات والمفاهيم المضمرة داخل النص بل تعد عتبة مهمة ومدخلا رئيسا لأخذ انطبعا مسبقا حول الموضوع ، لأنه يعد بنية مستقلة لها دلالتها الخاصة وله خيوط تربطه بهذا العمل الأدبي خاصة ، ومنه المنتج الصوفي الذي تتفاعل فيه الروح والنفس والزمن الآني المعاكس لواقع تجلى الإله للذات وهو بذلك يحاول دائما أن يأخذ شرعيته الدينية من الوصف الممكن وكذلك من خلال المصطلح المختزل المتمثل في العنوان فيصبح مفتاحا لهذا المركب المتناسق كله مع بعضه والذي يجمع أوله بآخره .

علم العنوان

جاء في لسان العرب لابن منظور في باب العين :

« مادة " ع ن ن " : عَنَّ الشَّيْءَ يَعْنُ وَيَعْنُ عَنَّا وَعَنَّا : ظهر أمامك وعَنَّ وَعَيْنٌ عَنَّا وَعَنَّا :

واعْتَنَ : اعترض وعرض ، ومنه قول امرئ القيس :

فَعَنَّ لَنَا سَرْبَ كَأَنَّ نَعَاجَهُ عَذَارِي دَوَارٍ فِي مَلَاءٍ مَدِيلٍ

وعننت الكتاب وأعننته لكذا ، أي عرضته له وصرفته إليه ، وعَنَّ الكتاب يعنه عَنَّا وَعَنَّته : كَعَنونة وعنوتته وعلوتته بمعنى واحد مشتق من المعنى .

وقال اللحياني : عَنَّت الكتاب تعيننا وعنيته تعينته إذا عنونته ، أبدلوا إحدى النونات ياءً وسمي عنوانا لأنه يَعْنُ الكتاب من ناحيته ، وأصله "عنان" ، فلما كثرت النونات قلبت إحداها واوا ..³

اصطلاحا

يرى جاك فونتاني « أن العنوان مع علامات أخرى هو من الأقسام النادرة التي تظهر على الغلاف » وهي جزء من هذا المنتج ، ويعرف عبد الحميد هيمة العنوان بأنه « نوع من أنواع التّعالي النصي الذي يحدد مسار القراءة والتي يمكن لها أن تبدأ من الرؤيا الأولى للكتاب »⁴ فيكون دليلا ومرجعا أساسيا في تحديد الوجهة للقارئ أو تحديد هوية النص الذي بدأ معه مسار القراءة المفتوحة على مسارات عدة ، فيضبط بذلك زاوية الرؤيا عند الكاتب ضمن الفضاء الاشتغال عليه .

وإذا تتبعنا هذه التعريفات نجد أن العنوان على العموم هو مجموع العلاقات اللسانية التي يمكن أن ترسم على النص ما من أجل تعيينه ، ومن أجل أن نشير إلى المحتوى العام وأيضا من أجل جذب القارئ .

يعد جيرار جينيت الرائد في هذا الفن الذي يشتغل على النص الموازي وإن كان قد أشار إليه قبله بعض النقاد مثل " دوتشي " و " دريدا " و " دوبوا " وغيرهم ، فقد كان الاهتمام بموضوع العنونة والعنونة النصية حديث هؤلأ قبل بلورة أفكاره وصياغتها من طرف "جيرار جينيت" ، فجاء التأسيس في عقد الثمانينات للضرورة التي خلقتها التراكمات المعرفية الذي تجعل القارئ في حالة وعي وانفتاح كامل على النص ومن جميع المستويات ، فالنص عند القارئ الذي يكون مبتور العنوان يحدث له « انشقاق وشرح كثيف في البنية الإنطولوجية للفهم وتفكك لمواقع تأثير المعنى وترميمه في عمل الدلالة »⁵ وهو بذلك يفتح المجال لفضاء العشوائية .

ولقد قامت النظريات الحديثة على رؤيا نقدية شاملة للنصوص والتي تقوم على إبراز جميع ما يحيط بالنص ويجعل له الخصوصية ، وجاء تألق "جيرار جنيت " في أعماله النقدية حين قدم دراسات نقدية من خلال ما أسماه المتعاليات النصية فقد « ميز بين خمسة أنواع تمثل نمذجة تجريدية وصفية للموضوع الجيد للشعرية البنيوية »⁶، وما تطرق إليه جنيت يخص الشعرية البنيوية خاصة وهو ما تعلق بالنص الموازي باعتبار العنوان نصاً مختزلاً موازيا له بداية وملازماً للقارئ كإحالة إلى المرجعية العامة التي يتعلق بها موضوع النص ف« الاختزال في العنوان يُعبّر عن الموضوع ويجعله واحداً من جملة احتمالات وقع عليها المبدع »⁷وهو بذلك يشكل الصورة العامة التي يلج من خلالها القارئ مستأنسا بالعنوان .

وانطلاقاً من الفضاء الذي يخلقه النص المتوازي فقد قسم جيرار جنيت النص الموازي إلى قسمين :

- المصاحب النصي (piri texte)

- المحيط النصي (epi texte)

ويختلف هذان المصطلحان عن بعضهما في الزمن الذي تتفاعل فيه النصوص فمصاحب النصي « يشمل بالضرورة على كل خطاب مادّي يأخذ موقعه داخل فضاء الكتاب مثل العنوان والتمهيد .. المحيط النصي يشمل كل عناصر النص الموازي التي تتموضع بصفة دائمة أو مؤقتة خارج النص »⁸.

فالعنوان يعد من أهم عناصر النص الموازي وهو ما جعله يحظى بعلم دقيق يتناول هذا الجانب الفعال في النصوص المختلفة تحت مصطلح جديد يعرف بـ "علم العنوان" أو "التيتولوجيا" ليتخذ لنفسه مساراً خاصاً في التنظير والمقاربات النقدية التي تعالج النصوص .

هامش النص

يعد هامش النص من أهم العتبات الموازية لدلالة النص والمحيط به ، إذ يعتبر نصاً مقابلاً يحتوي على الكثير من الإشارات والدلالات التي تحاول خلق جسراً لاقتراب إلى دلالة النص وقد عرف "جيرار جنيت" الهامش بأنه « ملفوظ متغير الطول مرتبط بجزء منتهي تقريبا من النص إما أن يأتي مقابلاً له وإما أن يأتي في المرجع »⁹ حيث لا ينفصل هذا الهامش عن النص الأصلي بل يكون متواصلاً معه بإحالة هي المرجع دائماً للنص الذي يحاول أن يوازي بين ما هو غامض مستتر وما هو جلي ظاهر وخارج النص فيأثلاًفاً معاً ليشكلاً نصاً مزدوجاً.

وبهذا يعد الهامش ميلاد نص جديد موازي للنص الأصلي، فهو سهل المسلك قريب التواصل إلى الفهم العام الذي نتج فيه الهامش ، إذ بعد فترة يتحول الهامش من نص موازي إلى نص أصلي للهامش الثاني فيصبح هناك هامش الهامش للنص حيث يوازي المعنى العام ويتفاعل مع الدلالة المركزية .

ويعتمد الهامش دائماً خطاباً يحمل دلالة تجعل القارئ والمتلقي يستحضر النص بإعادة نسجه لتعميق الدلالة ، ومن هنا يكون هامش النص له دور رئيساً في إنتاج الدلالة من خلال تعالقه مع النص فالهامش

يعد « نظاما معرفيا لا يقل أهمية عن المتن الذي يحفزه أو يحيط به بل يؤدي دورا مهما في نوعية القراءة وتوجيهها »¹⁰ وأحيانا يتعداه ليكشف عن حقائق جديدة ويعري النص عن مبهم سطحي فتتولد معرفة جديد لا تقل أهمية عن الأصل ، كما أنه يسقط الأصل ليخلق لنفسه مركزية جديدة فيصبح قناة تثبت وتنفي كل ما هو سابق إذا خالف حقيقة كانت آنية الجزم بصحتها وانسجامها مع ميلاد النص الأصل .
وتقسم الهوامش إلى ثلاثة أنواع :

أصلية : ووظيفتها تفسيرية تحاول أن تفك الرموز والمصطلحات وتكشف المعجم والمبهم في النص

لاحقة : ووظيفتها التعليق على النص ومحاول الوصول إلى فهمه والتماس دلالاته.

المتأخرة : وتكون وظيفتها إخبارية بأن تقدم معلومات حول النص.¹¹

ولهذا تعد الهوامش « من أهم عناصر المناس لأنها تظهر لنا بجلاء تلك المنطقة المترددة التي يقع فيها المناس لأنها تقع بين الداخل والخارج " النص " ، فكل هذه الحواشي والهوامش هي خارج النص الأصلي ، ولكن تعمل على تعضيده بالتعليق شرحا وتفسيرا ، أي في داخل النص »¹² وتحاول أن تكون الوسيط بين النص والقارئ الذي عجز عن التواصل مع النص الأصلي كونه اتخذ ستارا يحجب عن المعاني الجوانية ولا يبوح بأسراره إلا بحضور هذا المفارق الملاصق فيتعدد النص وجودا لمعنى واحد .

وفي الأعمال الخطابية نجد فيها بعض الحواشي توضيحات وتفسيرات لبعض المفردات الواردة داخل النصوص القرآنية التي تقوم بصنع دلالة وذلك بإعطاء المتلقي أو القارئ فسحة تحيل واسعة في إيجاد دلالة بعض المفردات الواردة في النصوص والمخصصة للهامش مثال قوله الله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾¹³ . فالنص لم يوضح لنا اسم وحقيقة هؤلاء القوم بل كناهم لكن الهامش عن طريق الروايات بين أن المقصود هم قوم شعيب، والرِّس هو اسم بئر ماء بمنطقتهم .

فالهامش هو كل ما يحيط بالنص ويحاول تبين ما هو مضمّر ، وتفصيل ما هو مجمل وتقريب المعنى للمتلقي ، ولذا يعد صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو أقرب هامش موازي لنص القرآن الكريم ، فقد كانت حياته كلها ترجمة لكلام الله عز وجل ، سئلت عائشة رضي الله عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت رضي الله عنها : « كان خُلِقَ القرآن »¹⁴ ، فسيرة النبي عليه الصلاة والسلام هي هامش للنص الأصلي ، وكلامه وسيرته نص موازي للنص الأصلي الذي أنزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو كلام الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾¹⁵ .

بل نجد الكثير من العلماء والأصوليين والفقهاء من جعل السنة وحي ثاني، بل ناسخ للنص الأصلي كما هو الحال في رجم المحصن يحدث « الشعبي عن علي رضي الله عنه حين رجم المرأة يوم الجمعة وقال قد رجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم »¹⁶ ، وهنا يحدث التحول الذي فرضه طول الزمن من هاش للنص إلى نص أصلي وناسخ له .

ابن عربي والتأليف

لقد كان لابن عربي الأثر الكبير في حركة التصوف الإسلامي ليس في زمنه فقط بل إلى يومنا هذا خاصة مع المستشرقين ، والذين اكتشفوا عالمية نصوص ابن عربي ولغته المميزة التي تتخطى محيطها التي نشأت فيه ، فهو يعد أحد أبرز المفكرين المسلمين الذين حظيت أعمالهم بالدراسة والترجمة في مختلف أنحاء العالم. وقد برز ابن عربي في علم التصوف خاصة وكتب فيه المئات من الكتب والرسائل والتي بلغ عددها ما يقارب الخمسمائة كتاب كما ذكر ذلك صاحب كتاب " نفحات الأنس " عبد الرحمن جامي .

ومن أهم المؤلفات هو كتاب " الفتوحات المكية " الذي يعد أهم مؤلف في التاريخ الإسلامي ومن مؤلفاته كتاب " تفسير القرآن " الذي يقول فيه صاحب كتاب فوات الوفيات أنه يبلغ خمساً وتسعين مجلداً وربما هذا هو كتاب التفسير الكبير الذي بلغ فيه إلى سورة الكهف عند الآية : " وعلمناه من لدنا علماً " ، وله أيضاً : فصوص الحِكَم ، محاضرة الأبرار ، إنشاء الدوائر، عنقاء مغرب في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب ، ترجمان الأشواق ، التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية ، مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم، وغيرها الكثير من الرسائل الصغيرة والمتوسطة الحجم شاهدة على غزارة علمه ورسوخ قدمه وعلو كعبه وبخاصة التصوف. وقد قام عثمان يحيى بتأليف كتاب يجمع فيه مؤلفات الشيخ الأكبر سَمَاه : مؤلفات ابن العربي تاريخها وتصنيفها، وهو باللغة الفرنسية ثم ترجمه الدكتور أحمد الطيبي إلى اللغة العربية ونشر عام 2001 من قبل الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وقد اتفق الكثير من الكتاب والعلماء على أن الشيخ الأكبر ابن عربي لم يكن مؤلفاً عادياً أو عارفاً مقلداً أو تابعا كغيره ممن سبق أو لحق ، بل كان متميزاً ومُؤَلِّداً لِبَلْغَةٍ جديدة تظهر فيها مدى قدرة هذا العارف في امتلاك ناصية اللغة وترويضها ، بل هو نفسه يؤكد أنه لا يجري مجرى الكتاب في التأليف .

وقد كثر فيه المدح كما يظهر في كتابات وصفه المستشرق بروكلمان بأنه من أخصب المؤلفين عقلاً وأوسعهم خيالاً ووردت ترجمة محيي الدين ابن العربي في العديد من كتب التاريخ وتراجم الرجال مثل : سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام والوافي بالوفيات وغيرها.

الفتوحات المكية

من خلال العنوان الذي يستظهر فيه ابن عربي خصوصية هذا المكان وارتباطه بالبقعة المقدسة وأن الفتوحات الربانية جاءت بعد الهجرة من المغرب إلى المشرق حيث حتمية الوارد المتزايد بقربه إلى منبع الوحي ، فهو يضم في هذا الكتاب كله من شخصه إلى المفارق المتعالي ، بل هو مستودع آراءه وسجل ذكرياته ومرآة شخصيته وقد ألفه مع بقية مؤلفاته ورسائله البالغة تقريبا (250) مؤلفا يظهر فيه شخصه فكان كلما فرغ من كتاب اختار منه مقتطفات وضمها لكتابه الفتوحات المكية ، حتى أصبح مرجعا لكتبه والشاهد على شخصه وعقيدته ، والكتاب يعد نورا متدفقا عميقا وصعب فيه الركب .

ولأنه لا تكفي فيه الفهرسة لضبط وترتيب فصوله وأبوابه ، لضخامته وكثرة المعاني وتشعبها وعمق أفكاره ، فإن العنوان يظهر هذه الصفة التي لا يتشارك فيها معظم الكتاب فهو فتح لا يقارن بغيره من المؤلفات وقد وصف عثمان يحيى كتاب الفتوحات المكية بأنه كتاب أشبه ما يكون بالغابة العذراء التي يضل زائرهما بمسالكتها اللاحبة وحراجها الكثة المنيعة¹⁷.

كتب ابن عربي الفتوحات مرتين ، الأولى : في مكة ، وفرغ منها سنة 629 هـ والثانية : في دمشق فرغ منها سنة 636 هـ وأهداها لصديقه عبد العزيز القرشي نزيل تونس ، ووصلتنا النسخة الأولى بخط أحد تلاميذه ، والثانية بخط ابن عربي نفسه وهي النسخة التي يحتفظ بها متحف الآثار الإسلامية بإسطنبول .

وقد طبعت مرات ، منها طبعة بولاق 1293 هـ وطبعة القاهرة على نفقة الأمير عبد القادر الجزائري سنة 1329 هـ وطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985 م بعناية عثمان يحيى الصادرة ضمن برنامج الاحتفال بالذكرى المئوية الثامنة لميلاد ابن عربي ، وتمتاز بعنوانه الفقرات ذات الدلالة الخاصة بما يكشف عن موضوعاتها مع التقديم لكل سفر بمقدمة تتناول بإيجاز مسائله العلمية ومشاكله الفكرية ، إضافة إلى مجموعة فهرس فنية منها : فهرس الأفكار والمباحث الرئيسية. والكتاب يضم (560) باباً موزعة على ستة أقسام : (المعارف 73 باباً) و(المعاملات 116 باباً) و(الأحوال 80 باباً) و(المنازل 114 باباً) و(المنازلات 78 باباً) وأخيراً (المقامات 99 باباً) .

وعند استعراضنا لكتاب الفتوحات المكية يتضح لنا جلياً ولكل دارس للتصوف أن هذا الترتيب يتناسب مع العنوان الذي يطرح فيه ابن عربي مراحل الفتح والمقامات التي يصل إليها السالك متدرجاً حتى آخر مرحلة حيث الفتح والصبُّ الغالب للعارف والذي ينتهي فيه الشيخ عبر سفر طويل إلى بداية نهاية السالك حيث تفترق النبوة والولاية ، من خلال تصويره العام لإنسان الكامل وهي ممثلة في شخصه .

فصوص الحكم

لو تتبعنا نصوص ابن عربي نجد أن كل ما هو منسوب له حقيقة هو محاولة منه استيعاب الخطاب الإلهي للحضرة السمرمية ، وهو هامش للنص القرآني ومستجيباً لخطاب بما فتح الله عليه من الفهم وما خصه به من حقائق عرفانية مستمدة من القرآن الكريم ومن الأسماء الحسنى ، وان كان لكتاب فصوص الحكم خصوصية لصغر حجمه وتشابك رموزه ومعانيه ، إلا أنه يعد خلاصة ما جاء به ابن عربي الذي يذكر فيه أنه أخرجه كما جاء في الرؤيا من يد النبي صلى الله عليه وسلم الشريفة الشيخ الأكبر وبعد « فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أريتها في العشر الآخر من محرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق ويده كتاب فقال لي : هذا كتاب فصوص الحكم حذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به فقلت : " السمع والطاعة لله ولرسوله و أولي الأمر منا كما أمرنا »¹⁸.

وذكر عن الشيخ أنه نهي ان يجمع بين هذا الكتاب و بين غيره من الكتب في جلد واحد وان كان من مؤلفاته

وعلل ذلك بأنه من الوارث المحمدي ، والعنوان هنا وبهذا الوصف من صاحبه هو رؤيا لا يملك من نفسه شيئا ولا من فكره وعقله سلطانا تفاعلت فيها حقيقة الوارد التي يتلقى فيه الصوفية معارفهم ، وان كان هذا المنتج هو حقيقة ما يؤمن به ابن عربي فقد انطبع في سريرته فأصبح صورة من خيال الشرعية التي يسقط فيها العقل والمنطق وتتجلى الصورة بكل مدرك نوراني فتصدق وتُصدق من صاحبها .

فهي أشبه بقلادة وضعت على الرقبة المصدقة بكتاب الله عز وجلّ بصفة علمية لعالم الخلق من عالم الملكوت لها فصوص منتظمة ، منبعها أسماء الله الحسنى التي هي حقيقة هذا الوجود والصلة المباشرة مع فهم حقيقة هذا المدرك ، فكانت منسوجة ومزينة من حيث هي من عند صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم .

ترجمان الأشواق

يبقى الانسان تحت سلطان القلب مهما كان اللباس الذي لبسه دهرا وضعيفا أمام غرائزه وما جلبت عليه النفس واستأنست به الروح وإن كان الذي غلب على ظن الناس أن يروا ابن عربي شيخا صوفيا زاهدا وعارفا بالله ، فيأخذون قوله على محمل الرمز ومن ذلك ديوانه الشهير ترجمان الأشواق ، والذي لا يعرف البعض أنه كتبه في مدح امرأة هي نظام بنت الشيخ أبي شجاع بن رستم الأصفهاني التي عرفها في مكة سنة 598 هـ عندما قدم إليها لأول مرة قادما من المغرب .

يقول ابن عربي عن سبب تأليف الديوان « إني لما نزلت مكة سنة خمسمائة وثمان وتسعين (1201 م) ، ألفت بها جماعة من الفضلاء، وعصابة من الأكابر الأدباء والصلحاء بين رجال ونساء ، ولم أر فيهم مع فضلهم مشغولا بنفسه، مشغولا فيما بين يومه وأمهه ، مثل الشيخ العالم الإمام ، بمقام إبراهيم ، نزيل مكة البلد الأمين مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجا الأصفهاني وأخته المسنة العاملة شيخة الحجاز »¹⁹ .

ويضيف ابن عربي بعد ذلك « وكان لهذا الشيخ ، بنت عذراء ، طفيلة هيفاء ، تقيد النظر، وتزين المحاضر، وتخيّر المناظر، تسمى بالنظام .. من العابدات العالمات السائحات الزاهدات .. ساحرة الطرف ، عراقية الطرف ، إن أسهبت أتعبت ، وان أوجزت أعجزت ، وان أفصحت أوضحت. أن نطقت خرس قس بن ساعدة .. »²⁰ والعنوان يضيف معنى جديدا بالواقع والمقصود المضمحل فيخلق لنا مفارقة عنوانية من خلال كسر التوافق بين عنوان الديوان وحقيقة الانسان ، وذلك تابعا لحتمية المتعالي والمتعلق بالذات الالهية التي لا يقارن مع حب ولا شوق ، وكل ما هو بين ظاهر إنما هو من أثر ذلك الشوق القديم قبل الوجود .

يسترسل ابن عربي في لفظ العنبر الذي عهد الناس عطره وشدها ويعلق على كلماته بالشوق القاهر الذي تخطى حقيقته ليبرر هذا مصدر العطر الذي اخترق القلوب قبل الأنوف وبمائل ذلك بسيرة من سبقه مستشهدا بلبلى التي طالما كانت حاضرة في كل المجالس العلمية والوعظية وكأنها شاهدة على فعل المغلوب المسلوب الإرادة ، فيكون فعله ترجمة لحقيقة الشوق الذي ألفه الناس في شخصه وان كانت كلماته رد سلام وتحية لأنثى أشعلت نار الشوق من غير قصد ولا نية .

الخاتمة

الشيخ ابن عربي صاحب أحوال وجامع لعلوم كثيرة ومع ذلك له قلم سيال وعاطفة مُنبَجسة ومتناثرة الرشّ والريّ ، فمهما حاول أن يتوارى خلف كلماته إلا أن حقيقة هذا الانسان تبقى مشتركة مع بني جنسه ، وتعد العناوين جزءا مهمّا من النسيج العام والمنظومة المعرفية العميقة لدى الشيخ محي الدين ابن عربي ، وهو ما يميزه عن غيره لصدق الوارد النوراني المتصل والمتشوف لحقيقة الوجود ، ومحاوله ابن عربي دائما أن يبحث عن الشرعية المطلقة لفكره وما يرد عليه ، وهو المتجلى على الظاهر في أقل الجزئيات ابتداء ثم ما يؤلفه من كتب ، والعناوين هي عتبة في هذا البناء الذي يعد هامشا للنص .

إحالات البحث

- 1 سعاد الحكيم ، ابن عربي مولد لغة جديدة ، دندرة للطباعة والنشر ، ط 1 ، 1991 م ، ص 91 .
- 2 المرجع نفسه ، ص 72 .
- 3 أبو الفضل جمال الدين ابن منظور
- 4 عبد الحميد هيمة ، المرجع السابق ، ص 64 .
- 5 عمارة ناصر، اللغة والتأويل مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي ، الدار العربية للعلوم ناشرون منشورات الاختلاف ، ط 1 ، 2007 ، ص 164 .
- 6 نبيل منصر ، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة ، دار توبقال للنشر ، ط 1 ، 2007 ، ص 25 .
- 7 أحمد مدّاس ، لسانيات النصّ نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري ، جدار الكتاب العالمي ، عمان - الأردن ، علم الكتب الحديثة ، ط 1 ، 2007 م ، ص 53 .
- 8 نبيل منصر ، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة ، ص 27 .
- 9 جيرار جينيت ، مدخل إلى جامع النص ، ترجمة : عبد الرحمن أيوب ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 3 2001 م ، ص 127 .
- 10 جميل حمداوي ، شعرية النص الموازي (عتبات النص الأدبي) ، شبكة الألوكة ، ط 2 ، 2016 م ، ص 140 .
- 11 جيرار جينيت ، مدخل إلى جامع النص ، ص 131 .
- 12 المرجع نفسه ، ص 131 .
- 13 سورة الفرقان ، الآية 38 .
- 14 أحمد بن محمد بن حنبل ، المسند ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، ط 1 ، 2001 م ، (ح ر) 16049 .
- 15 سورة النجم ، الآية 03 .

- 16 أحمد بن علي العسقلاني ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، إخراج وتصحيح : محب الدين الخطيب دار المعرفة ، بيروت ، 1379 هـ ، (ر ح) 6427 .
- 17 ينظر : محي الدين ابن عربي ، الفتوحات المكية ، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، (ج 2 ص 359 - 374) .
- 18 محي الدين ابن عربي ، فصوص الحكم ، تعليق أبو العلا عفيفي ، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان ، ط 2 ، 1980 م ص 47 .
- 19 محي الدين ابن عربي ، ترجمان الأشواق ، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، ص 7 .
- 20 المصدر نفسه ، ص 8 .

